بسم الله الرحمن الرحيم

الصِّراعُ بين الحضارات
حقٌّ واقعٌ أم ادعاءٌ كاذب

بقلم الشيخ؛ أبي بصير
عبد المنعم مصطفى حليمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وبعد:

فقد كثر مؤخراً الحديث عن الصراع بين الحضارات، وتحديداً بين الحضارة الغربية الرأسمالية النصرانية الديمقراطية وبين الحضارة الإسلامية، هل هو حقيقة واقعة لا مفر منها، أم أنه مجرد ادعاء وتوهم لا أساس له في عالم الوجود؟!

وللجواب عن هذا السؤال الهام الذي شغل عدداً من أوساط المثقفين والباحثين، لا بد أولاً من أن نحدد معنى مفهوم الحضارة.

فأقول: الحِضارة والحَضارة لغة: هي الإقامة في الحضَر، والحضَر خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف، سُميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار وعمران، بخلاف البادي في البادية فهو في تنقل دائم يبحث عن الكلأ والماء، لا يعرف القرار ولا العمران.

ويُقال: فلان حضَري إذا كان من أهل الحاضرة، وفلان بدوي إذا كان من أهل البادية، والحضري لما تميز به عن البدوي بالثبات والإقرار وعدم التنقل والترحال فإن ذلك ساعده على أن يثري حضارته مقر إقامته بجميع مظاهر النمو والتطور، والإبداع العلمي والفني والعمراني، والاجتماعي، فالحضارة هي محضن كل تطور أو إنجاز إنساني [1].

---

[1] أنظر لسان العرب، والمعجم الوسيط.

أما اصطلاحاً: فالحضارة هي عبارة عن مجموع المفاهيم، والتصورات، والعقائد، والقوانين، والمبادئ، والعادات التي تشكل سلوكاً معيناً ومحدداً عند الإنسان، وتحدد له طريقة معينة في الحكم والحياة.

فالمرء إذا تصرف بطريقة صحيحة راقية أخلاقية ومسؤولة، يُقال عنه هذا إنسان متحضر، وإذا تصرف بطريقة خاطئة، متخلفة، غير أخلاقية ولا مسؤولة، يُقال عنه هذا إنسان متخلف، همجي، غير متحضر.

فالسلوك الإنساني، أيَّاً كان نوعه، وكانت نتائجه، ليس هو الحضارة، وإنما هو عبارة عن نتاج المفاهيم والتصورات الحضارية التي ينتمي إليها ويعتقد بها.

فالإنجاز العلمي التجريبي - قديماً وحديثاً - يشترك فيه جميع بني البشر، وأسبابه مبذولة للجميع، وبالتالي فهو ليس دليلاً ولا مقياساً على تحضر أو حضارة شعب من الشعوب، وإنما هو دليل على جزء من تلك المفاهيم والقيم الحضارية التي ينتمي إليها ذاك الشعب أو غيره.

فالآلة المصنَّعة، مهما كانت ضخمة وهامة ومتطورة، ليست هي الحضارة، وإنما المفاهيم والقيم والتصورات، التي كانت سبباً في وجود هذه الآلة، والتي تحكم وتحدد الطريقة التي تُستخدم بها هذه الآلة، هي الحضارة وهي التحضر!

فالذي يُصنِّع سلاحاً فتاكاً مدمراً، ثم يستخدمه لأغراض الشر والفساد والتخريب في الأرض، ولأغراضه الشخصية الذاتية، فهذا رغم ملكه لهذا السلاح الفتاك وتصنيعه له، فهو إنسان غير متحضر، لا يُمكن أن يُنسب إلى الحضارة والتحضر في شيء، ولو نُسب مجازاً فهو يُنسب إلى حضارة متخلفة همجية غير راقية، ولا إنسانية!

نقول ذلك لأن كثيراً من الباحثين فضلاً عن غيرهم يقيسون الحضارة والتحضر بمدى الإنجاز والتطور العلمي، ويظنون أن آلات التصنيع المتقدمة، والتطاول في العمران، التي يتمتع بها مجتمع من المجتمعات هي الحضارة، وهي دليل على التحضر والرقي، وهذا خطأ فاحش شائع لا بد من تصحيحه وتداركه!

وعليه فإننا نقول: الصراع بين الحضارات هو في حقيقته صراع بين المفاهيم والتصورات والقيم والمبادئ، والعقائد، المتناقضة المتضاربة، والتي تحدد معالم وطريقة الحياة لكل حضارة أو أمة من تلك الحضارات أو الأمم.

هو صراع وتدافع بين مفاهيم وقيم الشر والظلم والطغيان وأتباعها من جهة وبين مفاهيم وقيم الخير والعدل وأتباعها من جهة أخرى.

هذا النوع من الصراع والتدافع بين الحق والباطل، وبين العدل والظلم، وبين المعتدي والمُعتدى عليه، وبين الفساد والإعمار، قائم وموجود منذ أن خلق الله تعالى إبليس، وآدم عليه السلام، ومنذ أن قدر وجود الخير والشر في الأرض، وخلق المتناقضات والأضداد، وسيبقى إلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها، لا يمكن أن تستقيم الحياة في الأرض من دونه!

هذه حقيقة ساطعة ظاهرة قد دلت عليها الأدلة النقلية والعقلية والواقعية، لا ينبغي الجدال فيها، كما لا يمكن تجاهلها أو إلغاؤها أو عدم اعتبارها عند حصول إي عملية تدافع وصراع وتنافر بين الحضارات أو بين قوى الخير والشر، والتضاد والتناقض في الوجود.

وللتدليل على هذه الحقيقة الظاهرة نتناول أدلتها النقلية والعقلية والواقعية بشيء من التوسع والتفصيل.

الأدلة النقليَّة:

كثيرة هي الأدلة النقلية التي تدلل على التدافع بين قوى الحق والخير الممثلة في أنبياء الله تعالى وأتباعهم المؤمنين، وبين قوى الشر والباطل والممثلة في أعداء الأنبياء والرسل، وما جاءوا به من عند ربهم عز وجل .

كما في قوله تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ} غافر: 26. فعلل فرعون رغبته في قتل موسىَ عليه السلام ومن آمن معه في أن موسى عليه السلام يريد أن يبدل دين قوم وأتباع فرعون؛ أي طريقتهم، ومفاهيمهم، ومنهجهم في الحياة والاعتقاد في الوهية وربوبية فرعون، وأنه - أي موسى عليه السلام - ما أراد

بذلك إلا الفساد في الأرض، وهي ذريعة طواغيت الأرض من قبل ومن بعد في رد الحق وتهييج الناس ضده!

قال ابن كثير في التفسير: {إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ} يعني موسى؛ يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم، وهذا كما يُقال في المثل: صار فرعون مذكراً؛ يعني واعظاً يُشفق على الناس من موسى عليه السلام اه.

ومن صور عداء الأمم والشعوب السالفة ما قاله تعالى عن قوم شعيب وموقفهم من شعيب عليه السلام ودعوته، كما في قوله تعالى: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ} الأعراف: 88. فعللوا سبب صراعهم وخلافهم مع شعيب عليه السلام ومن آمن معه أنهم على ملة ودين وطريقة غير ملتهم ودينهم وطريقتهم، وبالتالي فإن الصراع قائم ومستمر، ولا يقف إلا بإحدى أمرين: إما العودة والدخول في دين وملة وطريقة القوم، ومشاركتهم فيما هم فيه من فساد وضلال وانحراف، أو الطرد والإخراج من القرية، بحيث لا يرى أحدهما الآخر.

وهذا الذي قاله قوم شعيب لنبي الله شُعيب قاله الكفار المجرمون لرسل الله وأتباعهم على ممر التاريخ والأزمان، كما قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ} إبراهيم: 13. فالصراع كما هو واضح ليس حول التكنولوجيا ولا حول الصناعات، وما يُمكن أن يخترعه الإنسان من وسائل تعينه على البناء والعمران، وإنما على المبادئ والعقائد والملة، والمفاهيم، والمنهج الذي يحدد طريقة العيش والحياة، فجميع الذين كفروا قالوا لجميع الرسل ومن آمن معهم {لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}، أي في ديننا، ومفاهيمنا، وطريقتنا في العيش والحياة، التي لا نرضى أن تنضبط بضابط حكم الله عز وجل .

وكذلك قوم لوط، ما نقموا من لوط عليه السلام ومن آمن معه إلا أنهم لا يأتون الرجال شهوة مثلهم، وأنهم أناس يتطهرون، وهذا بخلاف ما هم عليه من الفسوق والفجور، والعادات السيئة، كما قال تعالى عنهم: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ

أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} النمل: 56. لا يوجد انسجام ولا تعايش بين الطهر والنجاسة، وبين الاستقامة وبين العهر والفسوق والعصيان، لذا {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ} .

وكذلك قوله تعالى: {وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ} البقرة: 217. فبين الله تعالى أن الكفار - في كل زمان ومكان، وإلى يوم القيامة - لا يزالون يُقاتلون المؤمنين، ويمكرون ويدبرون ضدهم، لا لشيء سوى أن يردوهم عن دينهم وعقيدتهم، ويدخلوهم في دينهم وطريقتهم، وعاداتهم، فهذا النوع من الصراع والتدافع قائم ومستمر إلى يوم القيامة!

وكذلك قوله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} البقرة: 109.

وقوله تعالى: {وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} البقرة: 251. فهذا التدافع بين الحق والباطل، وبين مفاهيم وطريقة كل منهما في الحياة من سنن الله تعالى في خلقه التي لا بد منها، لكي لا ينفرد الباطل وأهله في الأرض، من غير مقاومة ولا منازعة، فتفسد حينئذٍ الأرض، ويهلك من عليها!

ونحو ذلك قوله تعالى: {وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} الحج: 40. وهذا ملاحظ جداً، فعندما يتخلف أهل الحق في الدفاع عن الحق، ودفع الباطل عن باطله وعدوانه وغيه، ويتخلفون عن الأخذ بسنة التدافع، يُسلَّط عليهم عدوهم، ليهدم مساجدهم ومعابدهم، ويُمنعون من أن يذكروا اسم الله فيها، وما أكثر الشواهد الدالة على ذلك، فكم من مسجد حوِّل على أيدي الظالمين المعتدين إلى متحف، أو مرقص، أو منزل لغاصب، أو زريبة للحيوانات، كما حصل في البلاد الإسلامية المحتلة من قبل الاتحاد السوفيتي الشيوعي من قبل، وفي الأندلس، وتركيا، وفلسطين، والشيشان، وغيرها من البلدان!

وحتى لا يحصل هذا كله، وغيره من الإفساد والدمار، أمر الله تعالى بالدفع والتدافع، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونشر التوحيد، كما أمر الله تعالى أهل الحق بالإعداد والأخذ بأسباب القوة والمنعة ليتمكنوا من زهق الباطل وجيوشه، إن الباطل كان زهوقاً، كما قال تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً} الإسراء: 81. وقال تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} الأنبياء: 18.

وفي حديث السفينة الصحيح: (فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً).

وفي الأثر المشهور عن الصحابي ربعي بن عامر رضي الله عنه: (لقد ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد على عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام).

الأدلة العقلية: لا تعارض بين العقل والنقل، فما يقرره النقل الصحيح يوافقه العقل السليم ولا بد؛ فالعقل يقضي باستحالة تعايش الشيء وضده في آن ومكان معاً، وإقرار كل منهما للآخر طواعية، كتعايش الحق والباطل، والتوحيد والشرك، والإيمان والكفر، والفضيلة والرذيلة، والطهر والنجاسة، والوفاء والغدر، والأمانة والخيانة، والصدق والكذب، والظلم والعدل، والظالم والمظلوم، لذا كان لتحقيق التعايش بينهما لا بد من أن يعمل كل طرف منهما على أطر الطرف الآخر إلى ساحته وقوانينه وطريقته ومنهجه، وهذا لا يتحقق إلا إذا تخلى كل طرف منهما عما يتصف به من خصال وخلال لصالح الطرف الآخر، لكن الحق - مهما حاول أهل الباطل واجتهدوا ومكروا مكرهم - لا يمكن أن ينصاع للباطل وقوانينه وطريقته، ولا الباطل - بكل صنوفه وجيوشه وأنواعه ومذاهبه - يمكن كذلك أن ينصاع طواعية للحق، مع محافظته على باطله وطغيانه وما عُرف به من خلال مشينة، من هنا تأتي الضرورة لعملية التدافع والصراع بين المنهجين والتيارين، وهذا الذي يُعرف اليوم بصراع الحضارات، حضارة الحق وحضارة الباطل بكل جيوشها وتياراتها ومذاهبها!

وفي الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (عجبت لأقوام يُساقون إلى الجنة في السلاسل). وفي رواية: (رأيت ناساً من أمتي يُساقون إلى الجنة بالسلاسل، ما أكرهها إليهم! قلنا من هم؟ قال: قوم من العجم يسبيهم المهاجرون فيدخلونهم الإسلام) [2].

أدلة الواقع: أما أدلة الواقع الدالة على هذا النوع من الصراع والتدافع بين الحضارات أو بين الأمم والشعوب فهي أكثر من أن تُحصر في هذا الموضع، بل أكاد أجزم أن ما من صراع يحدث في العالم إلا ولهذا البعد في الصراع بين الحضارات الدور الرئيس والأساس.

وأنا هنا لا أريد أن أستقرئ التاريخ البعيد لأستخرج منه الأحداث الدالة على هذا النوع من التدافع والصراع، وما أكثرها لو فعلت - حتى لا يقول القارئ هذا تاريخ قديم لا حجة فيه، ونحن اليوم نعيش في عصر مختلف؛ عصر الانفتاح والعولمة والتحرر، والديمقراطية، والتعايش والسلام، والقانون الدولي، وهو عصر يختلف كثيراً عن العصور السالفة للآباء أو الأجداد - وإنما أريد أن أتناول بعض الأحداث والوقائع التي حصلت في واقعنا المعاصر والمعايش التي لا تزال آثارها جاثمة على صدور العباد، شاخصة لذوي الأبصار، والتي لا تخفى على أحدٍ من الناس مهما كان مصاباً بداء الجهل أو النسيان!

ما حصل ولا يزال يحصل في فلسطين، هل كان سيحصل لو كان الشعب الفلسطيني نصرانياً أو بوذياً أو ينتمي لأي دين غير دين الإسلام، وهل كانت أمريكا ومعها الحضارة الغربية النصرانية الديمقراطية، ستقف منه نفس الموقف الذي تقفه الآن؟!

وما حصل ولا يزال يحصل في أفغانستان، هل كان سيحصل لو كان الشعب الأفغاني نصرانياً، أو ينتمي إلى دين غير دين الإسلام، وهل كانت أمريكا ومعها الحضارة الغربية النصرانية الديمقراطية، ستقف منه نفس الموقف الذي تقفه الآن؟!

---

[2] السلسلة الصحيحة: 2874. وقوله " فيدخلونهم الإسلام " أي طواعية لا إكراهاً.. إذ لا إكراه في الدين.. لكن القيد والسلاسل كانت سبباً لهم في التعرف على عظمة وأخلاق الإسلام.. ومن ثم الدخول فيه طواعية.. فرب ضارة نافعة.. هكذا ينبغي أن يُفهم ويُفسر الحديث.

ما حصل ولا يزال يحصل في العراق، هل كان سيحصل لو كان الشعب العراقي نصرانياً أو ينتمي إلى أي دين غير دين الإسلام، وهل كانت أمريكا ومعها الحضارة الغربية النصرانية الديمقراطية، ستقف منه نفس الموقف الذي تقفه الآن؟!

ما حصل ولا يزال يحصل في الشيشان، هل كان سيحصل لو كان الشعب الشيشاني نصرانياً أو ينتمي إلى أي دين غير دين الإسلام، وهل كانت أمريكا ومعها الحضارة الغربية النصرانية الديمقراطية، ستقف منه نفس الموقف الذي تقفه الآن؟!

لماذا تيمور الشرقية النصرانية الكاثوليكية، مدينة الصلبان، تحظى باستقلالها التام عن إندونيسيا المسلمة، ويعترف بها المجتمع الدولي - من غير جدال ولا نقاش - كدولة مستقلة، بينما فلسطين، وكشمير، والشيشان، رغم عقود من الجهاد والتضحيات، والمطالبة بالاستقلال عن الغزاة المحتلين، لا يحظون بالاستقلال، ولا يلقون من المجتمع الدولي أدنى اعتراف أو مساعدة، بل العكس تماماً؟!

لماذا هذا التضامن والتفاعل الكبيرين والظاهرين من المجتمع الأمريكي والغربي مع قضية جنوب السودان النصراني، وحمل الحكومة السودانية على الانصياع لطلبات ورغبات نصارى الجنوب؟

لماذا أيما شعب مسلم مجرد أن ينشد حكماً إسلامياً، أو يُطالب بأن يحكمه الإسلام، دينه الذي يعتقده، يُصادمه مباشرة الفيتو الأمريكي والغربي النصراني الديمقراطي، والقصف الأمريكي الغربي، والحصار الأمريكي الغربي، ليحيلوا بينه وبين رغبته في أن يحكمه الإسلام، كما حصل في تركيا، والجزائر، والسودان، وأفغانستان، والشيشان، ويحصل الآن في العراق، وغيرها كثير من البلدان؟!

لماذا هذه الحساسية الزائدة من حجاب المرأة المسلمة، إلى درجة منعها من الحجاب بقوة السلطة والقانون كما حصل مؤخراً في فرنسا وغيرها من البلدان؟!

لماذا هذا التعاطف والتعاون، والدعم والتأييد، لكل ما هو غير إسلامي، بينما الإسلامي يُحارب، ويُسجن، ويُقتّل،

وتُنتهك حرماته كلها، ولا بـواكي لـه، بـل الكـل يتقـرب إلـى الكل بالاعتداء عليه، والسطو على حرماته وحقوقه؟!

لماذا هذه الحرب الشعواء لكل نشاط أو جهد أو عمل إسلامي خيري، باسم محاربة الإرهاب والإرهـابيين زعمـوا، بينما برامج ونشـاطات غيرهـم المتنوعـة والمختلفـة، رغـم أنهــم مجرمــون وإرهــابيون حقيقيــون، فــإنهم يمرحــون ويسيحون، ولهم كامل الحرية والحقوق؟!

لماذا هذا التواطؤ على دم المسلم في كل مكان، من غير أدنى إنكار ولا امتعاض، وكأنه أرخص من المياه الملوثة في المستنقعات، وكان آخرهـا الـدم الـذي سُـفك علـى يـد الجيش التايلندي الوثني، حيث قتلوا بدمٍ باردٍ أكثر من مائة مسلم في جنوب البلاد، وفي بيت مـن بيـوت اللـه، وكـذلك المجازر الجماعية التي ارتكبها النصارى الصـليبيون مـؤخراً في نيجيرية بحق المسلمين حيث قتلوا أكثر مـن " 700 " مسلم، ومن دون أن ينكر أو يعترض عليهم أحد!

لماذا هذه الحملـة المسـعورة علـى مناهـج التـدريس في بلاد المسلمين، رغم ما ينتاب هذه المناهج مـن قصـور، وانحراف، وتحلل؟!

لماذا ما من غـزوة يغزوهـا الرئيـس الأمريكـي بـوش الصــليبي - ومعــه حلفــائه مــن دول الغــرب النصــرانية الديمقراطية - إلا ويعلن أن غـايته مـن ورائهـا، نشـر ثقافـة الديمقراطية الإباحية، علـى الطريقـة الأمريكيـة والغربيـة، وأنه لا يقبل نظاماً ولا دينـاً ولا منهجـاً سـوى الديمقراطيـة الأمريكية الغربية، مهما كلف الثمن، ولو أدى ذلك إلى إبادة شـعب بكـامله، كمـا فعـل ولا يـزال يفعـل فـي أفغانسـتان والعراق، وغيرهما من البلدان؟!

لماذا هذا الكيد والمكـر كلـه {مَكْـرُ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً} سبأ: 33.؟! لمـاذا هذا الحـرص الشـديد والـدؤوب علـى أن يُطفئـوا نـور اللـه {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِـمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} التوبة: 32.

<u>الجواب يعرفه الجميع:</u>

وهو أن الدافع لهذا كله هـو البعـد الـديني، العقائـدي، الطائفي، الثقافي عند القوم، هو البغض والكراهية العامرة

في صدورهم لدين الله وما أنزله على رسوله، الذي تسميه بعض القنوات الفضائية، وكذلك بعض المثقفين - على استحياء - بالدافع أو الصراع الحضاري؟!

الدافع، هو خوفهم الشديد من الإسلام؛ لعلمهم أنه دين الله، وأن دين الله لا يُغالَب ولا يُحارَب، وأنه ظاهر على من ناوأه ولو بعد حين، وأنه محفوظ ومنصور، ولو كره الكافرون المجرمون!

ولعلمهم أن الإسلام حق، وهو قوةٌ متحركة بذاتها يغزو القلوب والعقول قبل الديار والأوطان، فكيف إذا ضم إلى قوته الذاتية القوة المادية التي يُحطم بها عروش الطواغيت الظالمين، ويزيل بها السدود والحدود التي تحيل بينه وبين الناس!

الإسلام في هذا الزمان، لا يملك دولة، ولا سلطة سياسية نافذة، تتبناه وتُدافع عنه، ومع ذلك فهم يخشونه، ويصنفونه العدو الأول الذي يتهدد الحضارة الغربية الماجنة، والحضارات الوثنية الأخرى!

المسألة بالنسبة لنا نحن المسلمين واضحة جداً قد بينها لنا ربنا أحسن بيان، وفصلها أفضل وأوضح تفصيل، كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} المائدة: 51. وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} الأنفال: 73. وقوله تعالى: {وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا} البقرة: 217. وقوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً} النساء: 76. فأيما حدث أو صراع بين الحق وأهله من جهة والباطل وأهله من جهة أخرى بكل تجمعاتهم ومذاهبهم ومناهجهم المختلفة، فنحن نفسره ونفهمه على ضوء هذه الآيات الكريمات، وليس لنا غير ذلك!

فالقضية بالنسبة لنا واضحة المعالم لا تحتاج إلى علوم سياسية، ولا إلى مزيد من التحليلات والدراسات، ولا إلى تلك التخصصات العلمية المعقدة، كما أننا لا نحتاج إلى براهين الواقع ولا غيرها لكي نصدق أن الكافرين بكل أطيافهم ومذاهبهم المختلفة لا يمكن إلا أن يكونوا {بَعْضُهُمْ

أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} على المؤمنين الموحدين، ولكن فريقاً من بني جلدتنا، يتكلمون بألسنتنا، يُعرفون بالتنور والعقلانية، والانفتاح، والتحرر، يشككون بهذه الحقيقة المطلقة، فنضطر إلى أن نستدل لهم بالأدلة والبراهين العقلية والواقعية كما تقدم!

فإن قيل: كيف نوفق إذاً بين الموقف الدولي والغربي الرأسمالي الديمقراطي الذي يسمح بحرية الاعتقاد، وحرية المسلمين في أن يمارسوا شعائرهم الدينية وبين القول بأنهم يُحاربون الإسلام والمسلمين؟!

أقول: فهم إذ يسمحون أن تُمارس شعائر الإسلام التعبدية على مستوى علاقة الفرد بخالقه سبحانه وتعالى، فهم لا يسمحون بالإسلام السياسي، ولا بالإسلام القوي المتسلح بأسباب القوة والمنعة المادية، ولا بالإسلام الذي يحكم البلاد والعباد وفق عقيدته ومنهجه ونظامه، كما يجب أن يكون، وكما أمر الله تعالى، ولا بالإسلام الذي يتدخل في حياة الناس، والشؤون العامة، على مبدأ قاعدتهم الكافرة المعروفة: (فصل الدين عن السياسة والدولة، والحياة، وأن ما لله لله؛ وهي الشعائر التعبدية المحصورة بعلاقة الفرد مع خالقه، وما لقيصر لقيصر؛ وهو جميع شؤون الحكم والحياة)!

بل حتى ممارسة الشعائر التعبدية ذات الطابع الفردي، عندما يكون لها دلالة سياسية معينة، أو قد تنعكس على حياة الناس بما لا يحلو لهم، ولا يريدون، تراهم يمنعونها ويُحاربونها؛ كموقف راعية الحرية - زعموا! - فرنسا من مسألة حجاب المرأة المسلمة في فرنسا، علماً أن الحجاب لا يتعدى أن يكون فعلاً مقصوراً على المستوى الفردي الشخصي لا يمكن أن يتعدى إلى غيره، ونحوه موقفهم المتشدد والعنصري من لحية الرجل المسلم، أو أي زي يرتديه ينم عن هويته أو انتمائه الإسلامي!

وكذلك تدخلهم في سياسة المساجد ونشاطاتها، وأوقات فتحها وإغلاقها، ومن يدخل إليها ومن يخرج منها، وتحديد موضوع خطبة الجمعة الذي سيُقرأ على المصلين فيها، ومع ذلك فهم لا يتورعون أن يُملئوا بيوت الله بالدبابير والجواسيس الذين يعملون لصالح الظالمين الذين يريدون أن يُطفئوا نور الله!

فهم بفعلهم وقولهم هذا قد طابقوا فعل وقول مَن قبلهم من المشركين، كما قال تعالى عنهم: {فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} الأنعام: 136. فتطابقت قلوبهم قبل أن تتطابق أقوالهم وأفعالهم!

ومن كيد القوم - أرباب الحضارة الغربية الصليبية ورهبانها - ومكرهم ضد أي عملية جادة تستهدف استنهاض الأمة واستئناف حياة إسلامية راشدة، أنهم زرعوا في بلاد العرب والمسلمين - ومنذ عقود عدة - معوقات عدة تحيل بين المسلمين وأهدافهم، منها طواغيت وأنظمة ديكتاتورية ظالمة كفرها وظلمها مغلظ ومركب، لتقوم بالنيابة عنهم بمحاربة واستئصال أي توجه إسلامي جاد، وهذه الأنظمة الفاشية الديكتاتورية الكافرة، تلقى منهم كل دعم وتأييد ومباركة مقابل القيام بمهمتهم هذه، وعلى قدر قيامهم بها بالشكل الفاعل والمؤثر يلقون الدعم والتأييد والمباركة!

فإن قيل: عرفنا دوافع الصراع وغاياته، وحتميته، ولكن هل ثمة اتفاق بين الحضارة الغربية النصرانية الديمقراطية والحضارة الإسلامية، وما هي أوجه الخلاف بينهما، وهل يعني ما تقدم أن الحضارة الغربية لا توجد فيها قيم حضارية معتبرة؟؟

أقول: هذه أسئلة هامة أجيب عنها بشيء من التوسع والتفصيل، وأبدأ بالجواب عن السؤال التالي: ما هي أوجه الخلاف بين الحضارتين: الحضارة الغربية الرأسمالية النصرانية، والحضارة الإسلامية [3]؟

---

[3] فإن قيل علام خصصت الحديث عن الحضارة الغربية الرأسمالية النصرانية.. والمقارنة بينها وبين الحضارة الإسلامية.. دون غيرها من الحضارات السائدة في العالم، كالحضارة الصينية الشيوعية، والحضارات الوثنية البوذية والهندوسية.. أو الحضارة اليهودية؟!

أقول: لأسباب عدة: منها: أن هذه الحضارات لا توجد لها قيم حضارية تقوى على الوقوف أمام الحضارة الإسلامية ومدها الثقافي والقيمي.. ولا ذاك الرصيد الثقافي المعتبر الذي يستحق البحث والنقاش. ومنها: أن مجموع هذه الحضارات دخلت كحليف وتابع للحضارة الغربية النصرانية الرأسمالية في حربها القديمة الحديثة ــ المعلنة والمبطنة منها ـ ضد الإسلام وحضارته، فهم بعضهم أولياء بعض في أي حرب تُشن ضد الإسلام وحضارته. ومنها: أن للحضارة الغربية النصرانية تاريخ قديم ومليء بالكيد والحرب والعداء للإسلام وحضارته.. وهي بين الفينة والأخرى تحن لإحياء وتجديد هذا

وللجواب عن هذا السؤال أقول: نعـم، توجـد أوجه خلاف عدة بين الحضارتين:

منها: الحضارة الإسلامية قائمة على عقيدة التوحيد؛ توحيـد الخـالق سـبحانه وتعـالى فـي الخلـق والأمـر، فـي العبادة، والطاعة، والحكم والتشريع، بينما الحضارة الغربية النصرانية قائمة علـى عقيـدة الشـرك والجحـود؛ فأشـركوا بالله تعالى، واتخذوا بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله!

ومنها: أن الحضارة الإسـلامية قائمـة علـى الإيمـان بجميع الأنبياء والرسل، لا نفرق بين أحدٍ من رسل اللـه عـز وجل، بينما الحضارة الغربية النصرانية تؤمن ببعـض الأنبيـاء والرسل، وتكفر وتجحـد ببعـض، ففرقـوا فـي الإيمـان بيـن الأنبياء والرسل.

ومنها: أن الحضـارة الإسـلامية شـاملة لتعـم جميـع جـــوانب الحيـــاة التعبديـــة، والأخلاقيـــة، والاجتماعيـــة، والاقتصـادية، والسياسـية، والعلميـة لا تنـافر بيـن العقيـدة وبيـن تلـك الشـمولية، بخلاف الحضـارة الغربيـة النصـرانية القائمـة علـى عقيـدة وثقافـة فصـل الـدين عـن الدولـة، والسياسة، والحياة، وحصـر الـدين فـي الجـانب الاعتقـادي وحســب، لعلمهــم واعتقــادهم أن دينهــم المحــرف الــذي تلاعبت به أيدي الأحبار والرهبان لا يلبي حاجيات وتطلعـات الشعوب، كما أنه لا يصلح لشؤون الحكـم، ومنـاحي الحيـاة الأخرى!

ومنها: أن الحضارة الإسـلامية قائمـة علـى التصـور والاعتقاد بأن السيادة المطلقة لله تعـالى وحـده، وأن هـذا الكون من ملكه سبحانه وتعالى، وهو خالقه والمتصرف بـه كيفما يشاء، وبالتالي فإن الإنسان مخلوق لله ومملوك لـه، وهو مُستخلف في الأرض لإعمارها وفق قانون وشرع الله، وبالتالي فهـو محاسـب ومسـؤول عمـا اسـترعاه اللـه إيـاه واستأمنه عليه، لا يجـوز لـه أن يخـرج عـن شـريعة وتعـاليم مالك وخالق هذا الكون في شيء، بينمـا الحضـارة الغربيـة

التاريخ.. وبخاصة إن توفرت لديها القـوة الماديـة الـتي تمكنهـا مـن فعل ذلك، كما هو مشاهد في واقعنا المعاصـر. ومنهـا: أن الملاحـم الكبرى ستكون مع القوم.. مع الروم.. عنـد أبـواب الشـام.. وذلـك قبل ظهور المسيح الدجال ونزول قاتله عيسى عليه السـلام بزمـن قليل.. يوم لا يُقسم ميراث، ولا يُفرح بغنيمة لشدة القتـل والقتـال، وكثرة المقتولين.. كما هو ثابت في أحاديث نبوية عديـدة صـحيحة.. لعلنـا نـأتي إلـى ذكـر بعضـها إن شـاء اللـه.. فهـم أعـداء الماضـي والحاضر والمستقبل!

النصرانية قائمة على أن السيادة المطلقة هي للإنسان، وأن الإنسان هو المالك الحقيقي للأشياء، وبالتالي من حقه أن يقبل ما يشاء، ويرد ما يشاء، ويفعل ما يشاء وفق ما يشتهي ويهوى!

وكنتيجة لما تقدم عُرفت الحضارة الإسلامية بالمحافظة على القيم والأخلاق الحميدة والتمسك بها، بخلاف الحضارة الغربية - كنتيجة لما تقدم - فقد عُرفت بالتحلل، والتفسخ، والسفور، والإباحية!

وكنتيجة لما تقدم كذلك فإن السلوك الإنساني في الحضارة الإسلامية يخضع للشعور والإيمان بمراقبة الله تعالى له والتي لا تغيب عنه لحظة، وبالتالي فهو منضبط وملتزم بمبادئ وأخلاق دينه وحضارته في السر والعلن، في الرضى والسخط، وفي حال حضور الرقيب من البشر وفي حال غيابه، فالأمر عنده سيان، بخلاف السلوك الإنساني في الحضارة الغربية النصرانية فإنه يخضع لرقابة الحاكم وجنده، ورقابة قانونه، فهو يلتزم بالقانون ما شعر بمراقبة القانون له، ويتهرب منه ومن تبعاته ما شعر بغياب رقابة القانون له، وما أكثر الأوقات التي تغيب فيها رقابة القانون عن الناس؛ وهذا يعني أن الإنسان الغربي النصراني يفقد الوازع الذاتي الداخلي الذي يحمله على الالتزام بما يُملى عليه من قوانين، وأخلاقيات، لذا فهو يحتاج إلى رقابة السلطان والكاميرات الخفية والظاهرة على مدار الوقت!

ومنها: أن الحضارة الإسلامية قائمة على الموازنة بين الروح والمادة؛ وإعطاء كل جانب حقه من غير إفراط ولا تفريط، بينما الحضارة الغربية النصرانية قائمة على الجانب المادي وحسب، وبالتالي فهي تعاني من فراغ قاتل في الجانب الروحي!

ومنها: أن الحضارة الإسلامية لها امتداد تاريخي حافل بالبذل والعطاء، والرقي والتسامح، شهد به الأعداء قبل الأصدقاء، يمر بجميع الأنبياء والرسل إلى أن ينتهي عند آدم عليه السلام، بينما حضارة الغرب النصراني مبتورة الأصل، ليس لها ذاك الامتداد، ولا ذاك العطاء، ولا ذاك التاريخ الحضاري الإنساني الذي تتماجد وتفتخر به أمام أبنائها، بل ما من غزوة غزوها ويغزونها وإلا ويجدوا أنفسهم - ولو بعد حين - مضطرين للاعتذار عما ارتكبوه من جرائم وفظائع لا تليق ببني الإنسان مهما كان متخلفاً!

راجع ما كتب وقيل عن الحروب الصليبية الأولى، ثم راجع ما كتب وقيل عن الغزو الصليبي المعاصر واستعمارهم لبلاد الإسلام، وكذلك عن المجازر الجماعية التي ارتكبتها أمريكا بحق سكانها الأصليين، وبحق الأفارقة السود، وما ترتكبه الآن - بتأييد ومباركة الغرب الصليبي - من مجازر وانتهاكات صارخة لكرامة الإنسان في أفغانستان، والعراق، وفلسطين، وغيرها من البلدان! [4].

فإن قيل: هل يعني ذلك أن الحضارة الغربية النصرانية لا توجد عندها قيم حضارية معتبرة؟

أقول: لا نستطيع أن نقول أن الحضارة الغربية تخلو من القيم الحضارية المعتبرة؛ لأن القول بذلك يعني زوال الحضارة الغربية برمتها عن الوجود، لزوال مقومات وجودها، لتصبح أثراً بعد عين، فهذا لا نقوله، ولكن الذي نقوله - وهو ما يقتضيه العدل الذي يلزمنا به ديننا الحنيف - أن الحضارة الغربية المعاصرة - على ما تقدم ذكره - فإنها تتحلى ببعض القيم الأخلاقية المعتبرة، التي تمدها بالقوة والوجود، والحياة!

من هذه القيم: الالتزام بقيمة البحث العلمي التجريبي، والنظام والتنظيم، واستغلال الوقت، والموارد، والدقة في المواعيد، والجودة في العمل، والإرادة القوية على النهوض والتقدم.

ومنها: قيم التعامل بالعدل والمساواة فيما بينهم، فالجميع الحاكم والمحكوم، والسيد والوضيع، والقوي والضعيف، يتساوون أمام قانونهم [5].

---

[4] نشرت " BBC " في موقعها على الإنترنت مقالاً بعنوان" أساس نيويورك الإفريقي "، جاء فيه: تقع بقايا عشرين ألف رجل وامرأة تحت شوارع نيويورك المزدحمة لمدة تربو عن القرون الثلاثة في انتظار أن تروي قصة العبودية في المدينة... ا- هـ. فأي تاريخ لحضارة تُشيد عمرانها على مقابر جماعية.. ومجازر ارتكبت بحق الآلاف من بني البشر، لا ذنب لهم سوى أن بشرتهم سوداء.. وما أخبار سجن " أبو غريب " المشينة واللاأخلاقية في العراق.. وأخبار سجون جونتناموا في كوبا.. عن مسامع الناس ببعيدة؟!!

[5] ولكن هذا العدل مقصور على التعامل فيما بينهم داخل بلدانهم.. بخلاف تعاملهم مع الآخرين خارج بلدانهم، فهو قائم على العدوان، والظلم، والإرهاب.. والانتهاكات لأبسط مقومات حقوق الإنسان.. وما أكثر الشواهد المعاصرة الدالة على ذلك لو أردنا الاستدلال.. بينما عدالة الإسلام فهي تلزم المسلمين بالعدل فيما بينهم ومع الآخرين ممن عاداهم وخاصمهم. كما قال تعالى{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ

ومنها: قيمة الحرية والتسامح السائدة في بلادهم وفيما بينهم، مع التنبيه أن جزءاً من الحريات السائدة في بلاد الغرب لا يمكن أن تُصنف كقيمة حضارية معتبرة؛ لآثارها السلبية والمدمرة على عقول وأخلاق الشعوب!

ومنها: قيمة التضامن والتكافل الاجتماعي المعمول به عندهم؛ حيث لا تجد منهم المتسول ولا الفقير المعدوم إذ كل واحدٍ منهم - بسلطان القانون - يجب أن يتوفر له المسكن، والمأكل، والملبس، والعلاج، والتعليم، فهذه أساسيات لا تجد واحداً منهم محروماً منها.

ومنها: قيمة الانتصار للمظلوم من ظلم الحكام والملوك، ولو بعد حين، وهذا المعنى قد أشار إليه عمرو بن العاص رضي الله عنه قبل ألف وأربعمائة عام، مستنبطاً إياه من حديث سمعه عن النبي صلى الله عليه وسلم، كما في صحيح مسلم: عن موسى بن عُليٍّ عن أبيه قال: قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (تقوم الساعة والروم أكثرُ الناس). فقال له عمرو: أبصر ما تقول؟ قال: أقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال: لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقةً بعد مصيبة، وأوشكهم كرةً بعد فرّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسةٌ حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلمِ الملوك).

قلت: هذه الخصال الحضارية التي أشار إليها عمرو بن العاص رضي الله عنه، نلمسها فيهم في هذا الزمان بوضوح، وهي - مع القيم الأخرى الآنفة الذكر - سبب في قوتهم وتفوقهم، وتقدمهم العلمي والتكنولوجي، كما أنها سبب في ظهورهم على الناس وخضوع العالم لدولهم وحكمهم وحكامهم!

قال الشيخ ناصر الدين الألباني في تعليقه على هذا الحديث، كما في مختصر صحيح مسلم: (قال صديق حسن خان في الشرح: لم يشرح النووي هذا الحديث ولم يبين المراد بـ "الروم"، والظاهر أنهم النصارى، وهذه الخصال الخمسة موجودة فيهم، وهم ولاة الأمر اليوم في أكثر

عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} المائدة:8. من هنا تكمن القمة والعظمة للحضارة الإسلامية التي تلتزم العدل مع من خالفها وعاداها كما تلتزمه مع نفسها وأبنائها!

الأرض، وهذا معجزة ظاهرة للنبي صلى الله عليه وسلم حيث وقع ما أخبر به مطابقاً لنفس الأمر، ولله الأمر من قبل ومن بعد) اهـ.

قلت: هذا في زمان صديق حسن خان، فكيف لو نظر إليهم وهم في زماننا؟!

ولكن نعود فنقول: هذه القيم الحضارية التي عُرفوا بها، رغم أن الإسلام يأمر بها وهو السبّاق إلى بيانها والدعوة إليها، ولا نحيد عن الصواب والحقيقة لو قلنا أن الآخرين استفادوها منا ومن حضارتنا، إلا أن المسلمين - في عصورهم المتأخرة - لما تخلفوا عنها وعن العمل بها، وعمل بها غيرهم على ما هم عليه من كفر وغير ذلك مما تقدم من صفاتهم، تخلف المسلمون عن قيادة الأمم والشعوب، بل وعن قيادة أنفسهم كذلك - بعد أن كانوا بقيمهم الحضارية الإسلامية قادة للعالم أجمع - ليتولى راية القيادة والريادة غيرهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

والأمة الإسلامية إن أرادت أن تُعيد لحضارتها عزها ومجدها الأول، ودورها الريادي والقيادي الذي كان لسلفنا الصالح لا بد لها من العودة والتمسك بمجموع القيم الإسلامية الحضارية من دون أن تفرط بشيءٍ منها.

لا بد أن نكون أكثر منهم عدلاً ورحمة بالعباد، فسنة الله تعالى في خلقه أنه تعالى يحب العدل، وينصر أهله، ويبغض الظلم ويحرمه ويخذل أهله، ولو بعد حين، وقد صدق من قال: إن الله لينصر الدولة الكافرة العادلة على الدولة المسلمة الظالمة!

لا أثر للقيم الحضارية ولا فاعلية لها إن لم تتجسد في سلوك وواقع أتباعها، فالقيم مهما كانت عظيمة وراقية تبقى معانٍ مجردة لا أثر لها في الوجود، إلى أن يأتي من يأخذها بقوة وصدق، فيحييها ويترجمها إلى سلوك وواقع في حياته العملية.

لذا لا يكفي أن نتكلم عن عظمة الإسلام كعقيدة، وشريعة، وأخلاق، وقيم حضارية راقية وحسب من دون أن نجسد هذه العقيدة والقيم في سلوكنا وواقعنا وجميع جوانب حياتنا، فالسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لما سُئلت عن خُلق النبي صلى الله عليه وسلم قالت: (كان خلقه القرآن"؛ أي كانت أخلاقه وسيرته صلى الله

عليه وسلم خير ترجمان وتفسير للقرآن الكريم، من هنا جاء الوعيد الشديد بحق من يقول ولا يفعل، ويعلم ولا يلتزم، وينهى عن خُلق ثم يأتيه أو يأتي ما هو أسوأ منه، كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ} الصف: 2-3.

لا يكفي أن نقول كان آباؤنا، إذ لا بد كذلك من أن نقول هانحن، وأن نصنع المجد بأيدينا وبدمائنا وعرقنا كما صنعوا!

هذه حقيقة بدت - رغم كثير من المعوقات الشاقة التي يصطنعها طواغيت الحكم والكفر في بلاد المسلمين - تُعيد كثيراً من المسلمين إلى رشدهم وإسلامهم، وأخلاق وقيم دينهم الحنيف، وها نحن - ولله الحمد - نشهد صحوة إسلامية مباركة، وأوبة جادة وصادقة إلى الحق من شرائح عديدة من أبناء الأمة، وعلى مستوى امتداد الأمة في جميع أمصار المسلمين، وهي تعتبر الخطوات الأولى - إن شاء الله - نحو النصر والتمكين والسؤدد {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} الحج: 40.

فإن قيل: هل يُفهم من القول بحتمية الصراع بين الحضارات المتنافرة في مفاهيمها وقيمها وثوابتها يعني عدم الانتفاع من إجراء الحوار بين تلك الحضارات، وتحديداً بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية النصرانية؟!

أقول: الحوار بين حضارة الإسلام والآخرين وجدالهم بالتي هي أحسن بابه مفتوح لا يمكن إغلاقه؛ لأن الإسلام دين رحمة للعالمين، وبالتالي لا بد من بذله للآخرين بالتي هي أحسن، وبأسلوب أخلاقي يرقى إلى مستوى عظمة هذا الدين، إذ لا إكراه في الدين، كما قال تعالى: {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} البقرة: 256. وقال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} النحل: 125. وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} سبأ: 46. وقال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران: 64.

وفي الحديث في صحيح البخاري عن علي رضي الله عنه قال: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم). وغيرها كثير من النصوص الشرعية التي منها نص أهل العلم على أن بذل الدعوة والنصح للآخرين يجب أن يتقدم ويسبق القتال والمواجهة بالسنان.

فالحوار مشروع، وبابه مفتوح، مع أعتى وأطغى طغاة الأرض، ولكن على أن يكون على أسس علمية وشرعية؛ الغاية منه إنصاف الحق، وبيان الحق، وأطر المخالفين إلى الحق، وانصياع الجميع إلى الحق، وتحكيم الحق، وليس للمداهنة والمجاملة في الباطل، وإصباغ الشرعية على الباطل، أو أطر الحق والباطل إلى نقطة تتوسطهما، من قبيل التقريب والجمع بين الشيء وضده في آن واحد، والعمل بمفهوم الوسطية المزعومة التي تعني التوسط بين الحق والباطل، كما يصنع كثير من دعاة حوار الحضارات في هذا الزمان، ومن دون أي جدوى أو فائدة تُذكر [6].

الحوار ينفع كذلك عندما يكون الحق قوياً له دولته وشوكته، وأراد الآخرون أن يدخلوا في سلمه وعهده وأمانه وجواره، وفق شروطه ومبادئه وقيمه، فبعدها يُقال لهم، لا

---

[6] وأنا أكتب هذا المقال استوقفني مقال نُشر في جريدة " الشرق الأوسط " بتاريخ 6/5/2004، للأمين العام للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مصر ـ كما ورد التعريف عنه ــ عبد الصبور مرزوق، يقول فيه: لا جدوى من وراء حوار الأديان والحضارات؛ لأنه حوار أشبه بحوار الطرشان، وهو مضيعة للوقت.. ا- هـ.
أقول: هو أشبه بحوار الطرشان، وهو مضيعة للوقت.. لأن الغرض منه طمس الحقائق.. وإلغاء فكرة الصراع والتدافع بين الحق والباطل.. وحضارة كل منهما.. ولأن الحوار لم يعقد على أسس علمية وعلى نية وقصد بيان الحق فيما تم الاختلاف فيه.. وإنما يُعقد للمداهنة والمجاملة.. وتحكيم الهوى.. ولتذويب مفهوم العقيدة الإسلامية أكثر فأكثر.. ومفهوم الولاء لهذه العقيدة.. ولتثبيت شرعية باطل الآخرين في أذهان الشعوب والأجيال القادمة.. ولتقريب الحق والباطل إلى أقرب نقطة تتوسطهما، وليس لأطر الباطل إلى الحق.. لذلك لا نجد لهذه الحوارات الحضارية بركة ولا نفعاً.. وهي أشبه بحوار الطرشان، زادها الله طرشاً!

تسريب عليكم {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}، لكم دينكم ولنا دين!

فإن قيل: إلى متى سيستمر هذا الصراع والتدافع، أليس له حد، أليس له نهاية؟!

أقول: سيستمر هذا الصراع والتدافع بين الحق وأهله من جهة والباطل وأهله من جهة أخرى إلى حين ظهور المسيح الدجال وفتنته، ونزول عيسى عليه السلام، وتكون آخر معركة فاصلة بين الحق والباطل هي المعركة التي يقودها عيسى عليه السلام فيقتل فيها المسيح الدجال ومن معه من اليهود، في هذه المعركة ينطق الحجر والشجر فيقول يا مسلم يا عبد الله تعال ورائي يهودي فاقتله إلا شجر الغرقد، وبالإنتهاء من هذه المعركة الفاصلة ينتهي الصراع [7]، ويسود الأمن والسلام والرخاء، وتهلك الملل كلها إلا ملة الإسلام، حيث يضع عيسى عليه السلام الجزية فلا يقبلها من أحد، ويدق الصليب ويُزيله، ويقتل الخنزير، فيمكث عليه السلام بين المسلمين أربعين سنة هي من أفضل وأهنأ سنين الدهر، يعم فيها الرخاء والأمن والسلام، وتضع الحرب أوزارها، ثم يتوفاه الله تعالى، ثم يأتي أمر الله فيُرسل ريحاً كريح المسك مسها مس الحرير فلا تترك نفساً في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة، ولما كانت هذه الأمور غيبية لا مجال فيها للرأي والاجتهاد نرد النصوص الشرعية الصحيحة هي التي تتكلم لتبين لنا ذلك كله.

أما أن الصراع والقتال والجهاد مستمر إلى أن يأتي أمر الله، فهو لقوله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك) مسلم.

ولقوله صلى الله عليه وسلم: (لن يزال قوم من أمتي ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون) مسلم.

---

[7] بعد هذه المعركة يخرج يأجوج ومأجوج.. وتظهر فتنتهم.. إلا أنهم يزولون بسبب كوني يشاؤه الله تعالى ويُقدره رحمة بالمؤمنين.. " فيرسل الله عليهم النَّغَف في رقابهم، فيصبحون فَرْسى كموت نفسٍ واحدة " ومن دون أن تحصل أية مواجهة بينهم وبين أهل الحق.. لذا قلنا أن آخر معركة بين الحق والباطل هي المعركة التي يَقتل فيها المسيحُ عليه السلام المسيح الدجال.

ولقوله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة) مسلم.

وأما الدليل على ظهور الدجال، ونزول عيسى عليه السلام وقتله للدجال فهو لقوله صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق [8] فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ فإذا تصافوا، قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله، لا نخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم، ويُقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث، لا يُفتنون أبداً، فيفتتحون قسطنطينية، فيما هم يقتسمون الغنائم، قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح [9] قد خلفكم في أهلكم، فيخرجون وذلك باطل، فإذا جاءوا الشام، خرج، فبينما هم يعدون للقتال، يسوون الصفوف إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام، فأمهم، فإذا رآهم عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده [10] فيريهم دمه في حربته " مسلم.

ولقوله صلى الله عليه وسلم: (ليس بيني وبينه نبي - يعني عيسى - وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجل مربوع، إلى الحمرة والبياض، بين ممصرتين [11]، كأن رأسه يقطر، وإن لم يصبه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب [12]، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية [13]، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجال، فيمكث في الأرض أربعين سنة يتوفى فيصلي عليه المسلمون [14]).

وأما الدليل على قتل اليهود ممن يكونون مع الدجال يومئذٍ، وقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله تعال ورائي يهودي فاقتله، فهو لقوله صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر،

---

[8] موضعان بقرب حلب.
[9] المراد به المسيح الدجال، كما جاء ذلك صريحاً في رواية ثانية.
[10] أي يقتله الله بيد عيسى ابن مريم عليه السلام.
[11] ممصرتين: ثياب فيها صفرة خفيفة.
[12] أي يكسره، ويمنع من رفعه كشعار دال على الكفر والكذب.
[13] فهو لا يقبلها من الكفار، فإما الإسلام وإما القتل والقتال.
[14] صحيح سنن أبي داود: 3635.

فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم [15]! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله إلا الغرقد [16] فإنه من شجر اليهود " مسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم: (قال عيسى افتحوا الباب فيُفتح، ووراءه الدجال، معه سبعون الف يهودي كلهم ذو سيف محلى وساج، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء، وينطلق هارباً، ويقول عيسى عليه السلام: إن لي فيك ضربة لن تسبقني بها، فيدركه عند باب اللد الشرقي فيقتله، فيهزم الله اليهود، فلا يبقى شيء مما خلق الله يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء؛ لا حجر، ولا شجر، ولا حائط، ولا دابة - إلا الغرقدة؛ فإنها من شجرهم لا تنطق - إلا قال: يا عبد الله المسلم هذا يهودي فتعال فاقتله) [17].

أما أن القتال والصراع سيتوقف بقتل وقتال الدجال ومن معه، ومن بعدها سيعم الأمن والسلام والرخاء، فهو لقوله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق،ظاهرين على من ناواهم، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال) [18]. فكون آخر الطائفة الظاهرة المنصورة تقاتل المسيح الدجال، فدل أنه ليس بعد قتال الدجال قتال.

ولقوله صلى الله عليه وسلم: (فيكون عيسى ابن مريم عليه السلام في أمتي حكماً عدلاً، وإماماً مقسطاً، يدق الصليب، ويذبح الخنزير، ويضع الجزية، ويترك الصدقة، فلا يسعى على شاة ولا بعير، وترفع الشحناء والتباغض، وتنزع حُمَةَ كل ذات حمة، حتى يدخل الوليد يده في الحية فلا تضره.

وتُفِرُّ الوليدةُ الأسدَ فلا يضرها، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها.

---

15 وليس يا عربي أو يا كردي، أو يا تركي.. أو يا فارسي.. وإنما يا مسلم.. يا موحد.. والحديث فيه أن التحرير الكامل سيتم على أيدي المؤمنين الموحدين.. وليس على أيدي الزنادقة العلمانيين.. ولا الخونة المنافقين!

16 ما أكثر زراعة اليهود في فلسطين لهذا النوع من الشجر.. شجر الغرقد!

17 صححه الشيخ ناصر الدين الألباني في كتابه " قصة المسيح الدجال، ونزول عيسى عليه السلام ".

18 صحيح سنن أبي داود:"2170".

وتملأ الأرض من السِّلم كما يملأ الإناء من الماء، وتكون الكلمة واحدة، فلا يُعبد إلا الله، وتضع الحرب أوزارها، وتسلب قريش ملكها، وتكون الأرض كفاثور الفضة تنبت نباتها بعهد آدم، حتى يجتمع النفر على القطف من العنب فتُشبعهم، ويجتمع النفر على الرمانة فتشبعهم، يكون الثور بكذا وكذا من المال، وتكون الفرس بالدريهمات. قالوا: يا رسول الله! وما يرخص الفرس؟ قال: لا تُركب لحرب أبداً. قيل: فما يغلي الثور؟ قال: تحرث الأرض كلها) [19].

وأما الدليل على أن عيسى عليه السلام يمكث بين المسلمين أربعين سنة، ثم يتوفاه الله تعالى، ثم يأتي أمر الله فيرسل ريحاً كريح المسك مسها مس الحرير تقبض أرواح المؤمنين، ثم تقوم القيامة على شرار الخلق، فهو لقوله صلى الله عليه وسلم المتقدم: (فيمكث في الأرض أربعين سنة يتوفى فيصلي عليه المسلمون).

ولقوله صلى الله عليه وسلم: (فينما هم كذلك - أي في النعيم الذي عم وساد بعد الحرب مع الدجال وهلاك يأجوج ومأجوج - إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارُج الحُمر، فعليهم تقوم الساعة) مسلم.

ولقوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله يبعث ريحاً من اليمن ألين من الحرير، فلا تدع أحداً في قلبه مثقال ذرةٍ من إيمان إلا قبضته) مسلم.

وعن عبد الرحمن بن شُماسَة المهري قال: كنت عند مسلمة بن مخلّد وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال عبد الله: لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق هم شر من أهل الجاهلية لا يدعون الله بشيء إلا رده عليهم. فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر فقال له مسلمة: يا عقبة اسمع ما يقول عبد الله. فقال عقبة: هو أعلم، وأما أنا فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك)، فقال عبد الله: (أجل ثم يبعث الله ريحاً كريح المسك مسها مس الحرير فلا تترك نفساً في قلبه مثقال حبة من

[19] صححه الشيخ ناصر الدين الألباني في كتابه " قصة المسيح الدجال، ونزول عيسى عليه السلام ".

الإيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة) مسلم.

فيكون المراد من قوله صلى الله عليه وسلم: (إلى يوم القيامة " أي " أنهم لا يزالون على الحق حتى تقبضهم هذه الريح اللينة قرب القيامة وعند تظاهر أشراطها، فأطلق في هذا الحديث بقاءهم إلى قيام الساعة على أشراطها ودنوها المتناهي في القرب، والله أعلم) [20].

وبعد، هذا هو مبدأ الصراع، وهذا هو منتهاه، وهذه هي حقيقته، راياته واضحة المعالم، لا مجال فيه للجحود أو النكران أو التأويل أو الهروب، لا بد للأمة - إن أرادت أن تستأنف حياة عزها ومجدها وسؤددها - من أن تروض نفسها لتحمل مسؤولياتها تجاه دينها، وأرضها، وحرماتها، ووجودها، وإلا فلتروض نفسها لمزيد من الذل والنكبات، ومزيد من دفع الضرائب الباهظة للباطل وأهله؛ تدفعها من دينها، وأبنائها، وعِرضها، وعزتها، وكرامتها، ومالها، ووجودها، على موائد الطواغيت الظالمين، والأعظم من ذلك كله أنها بذلك تعرض نفسها لغضب وسخط ربها سبحانه وتعالى، اللهم إني قد بلغت فاشهد، اللهم إني قد بلغت فاشهد.

وصلى الله على سيدنا ونبينا وقائدنا ومعلمنا وحبيبنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

عبد المنعم مصطفى حليمة؛ أبو بصير الطرطوسي
20/3/1425 هـ

[20] قاله النووي في

تم تنـزيل هذه المادة من منبر التوحيد والجهاد

w.dehwat.www//:ptth
dqamla.www//:ptth
ofni.hannusla.www//:ptth